الغيور

بقلم : صوفى عبد الله

هل انا انا ؟

هـذا هو السـؤال الذى بات يحيرنى ...

فكلما نظرت الى نفسى «من الخارج» اتفقت فى الراى مع الناس جميعا فيمن اكون انا .

لا تعجبوا ! فالكائنـات كلهـا لها وجودان : وجود « من الخارج ... » هو ذلك الوجود الذى يراه النـاس ويسمعونه ويلمسونه ، ووجود آخـر « من الداخـل » قد لا يـراه أحد ولا يسـمعه ولا يلمسه ، لانه وجود « خاص جدا » للكائن نفسه .

وبما اننى كائن . فلا بد اذن ان تنطبق على الاحكام العامة التى تسرى على جميع الكائنات . ومن هنا كان من المحتـم ان يكون لى وجودان : ذلك الوجود الخارجى الذى يحسه الناس، ووجود آخر لا يحسـه الا انا . وفى بعض الاحيان فقط لا فى سائرها !

الى هنا والمسـألة ـ كما ترون ـ بسيطة جدا ومنطقية للغاية . ولـكن الصعوبة تأتى من اننى كلما نظرت الى نفسى عانيت ما يعـانيه كل أحول ! فباحـدى عينى أنظر الى نفسى من الخارج فاشارك جميع الناس فى النظر الى هذا المخلوق المسجل اسـمه فى شهادة الميلاد وله أوصـاف بدنيـة وسلوك وعلاقات ظاهرة معـروفة . وبعينى الاخرى ارى مخلوقا آخـر . أرانى أنا ولـكن من الداخـل ، أرى انسانا مختلفا جدا عن ذلك الانسـان الذى يسـمعه النـاس ويرونه ويتسامعون به .

ولهذا كان طبيعيـا جدا وأنا أعانى من هذا «الحول» العقلى ـ أن أتسـاءل اى هذين انا ؟ وهل أنا الذى يعـرفه الناس هو انا حقا ؟

جميع الناس يقولون عنى أننى رجل محظوظ ...

وهكذا اقول انا ايضا كلما نظـرت الى نفسى من الزاوية التى ينظر منها النـاس ، الى ذلك المخلوق المسمى « أنا » من الخارج . واجد معهم الحق كله فى أن يصفونى هـذا الوصـف البهيج الذى لا يخلو من حسـد . ولا اكتمكم ان نفسى تبتهج بما يعانونه من الحسد لى بعض الابتهاج .

أراهم على حق كلما نظرت ـ كمـا ينظرون ـ الى أسباب السـعادة الغامرة التى تحيط بى منذ مولدى .

ومع هذا كله فانا انسـان تعيس !

أو هكذا اصبحت اراني كلما نظرت بعيني الاخرى الى نفسي من الداخل . ويزيد عذابي أن حظي السعيد هو الذي كان بالذات سبب تعاستي والسر في سوء حظي ! ..

كلا .. لا تتهموني بالجنون ... اصبروا قليلا لتعرفوا وجهةنظري التي تبرر هذا التناقض الذي يبدو لاول وهلة خيالا او جنونا . وبعد هذا ستحكمون انتم انفسكم انني رجل عاقل ... عاقل جدا ولكنه تعس !..

عمري وصحتي ...

شباب كالورد ... في السابعة والعشرين !

شكلي ومظهري ؟

دع هذا جانبا ! فحسبك من امري انني ولدت وفي فمي ملعقة من ذهب ، كما يقولون ، وفي وجهي وقامتي كنزان من الذهب ايضا !

ولدت غنيا وسيما بالوراثة . وولدت وجيها مرموقا معافى من العمل والكدح بالوراثة ايضا . ومرشحا لعضوية ارقى الأندية والأوساط بالمؤهل السالف الذكر ..

عاطل بالوراثة ؟

ربما .. بل هو بالتأكيد صحيح .. ولكن هذا لم يكن مصدر تعاستي بل بالعكس مصدر نشوتي !

شباب وفراغ وثراء .. طالما ردد الناس فيها قول ابلغ قدامى الشعراء في أنها مفسدة للمرء اى مفسدة ... وانا لم اشعر الا انها مسعدة للمرء اى مسعدة !

منذ أن كنت في الثامنة عشرة والحسان يترامين على كما تترامى الفراشات على النور ، وكانت قلوبهن تتساقط في لظى شبابي المستعر ، ويحترقن واحدة بعد واحدة ، وانا لا ابالي ، بل اجد في ذلك لذة لا تعدلها الا لذة التفاف مزيد من أسراب الفراشات الحسان ! ...

الحب ؟ .. الهيام ؟ .. الاشواق المتقدة والاحلام الضخام ؟ ..

تلك بضاعة المحرومين من الحظوة عند النساء ، بضاعة من لا يملكون من جمالهن الا الاحلام والتمنى ولوعة العجز عن تحقيق رغباتهن المحرقة منهن. اما انا .. ! فلم يكن عندي وقت للرغبة والتمنى . كانت يدي مملوءة باكثر مما تريد ، فليس أمامي الا ان أختار من الوانهن وافانين فتنتهن ما اهوى . وكل مليحة بمذاق ...

وكان أجمل ما في تلك النشوات المتصلة شعوري بحريتي وبسطوتي . انا غير مرتبط باحد . غير مسئول عن شيء ، وغير مسئول امام احد . ابدا المغامرة وانا اعلم انها مغامرة عابرة ... وتكون خاطرتي وانا في أول لقاء ، وعندما تحترق شفتاي باول قبلة، ان هذه الحسناء لي كلما شئت. وطالما شئت ، ولكني لست لها ! وفي استطاعتي أن اصرف نفسي عنها في اية لحظة فلا أتألم ، وقد تتألم . . . بل انى قد أتلذذ بذلك الاعراض عنها الى سواها . وما اكثر اللواتي كانت كل أمنيتهن أن يختطفنني من أذرعة

الأخـــريات ، ليظفرن بلذة التفوق والانتصار ... وانا وحدى الظـــافر المنتصر

ولم اكن اتصور حياة فى دنيـــا ولا آخرة تفوق هذا النعيم المتجدد المتعدد الملذات والمفاتن ...

وفجـــأة تسربت الأفعى الى جنتى لتطردنى منها ...

تسربت الى جنتـــى تلك ــ وانا لا أدرى ــ أفعى السأم والملل والبطر .. واصبحت كل حواء جديدة نســـخة معادة مكررة ، أعلم سلفا ما سيكون من حركاتها وسكناتها ، فلا تتحـــرك لها نفسى ...

كل مملوك مزهود فيه ... مرغوب عنه !! ...

هذا ما كتب على ابن آدم ، وهـذا ما قراته مسطورا بأجســـاد عشرات وعشرات ممن ترامين على احضـــانى حتى مجتهن أعصابى ! .

الرجـل صيـــاد بالفطرة ... فى تكوينه غريزة الصـــيد ... واية لذة تبقى لصياد لا يتسع به الوقت لاطلاق بندقيته ، لأن الطيور تخر من تلقـــاء نفسها تحت قدميه ، وتحط على كتفيه ، وتتمسح بعنقه وخديه ؟

وتركت صيد الظباء من بنـــات الانس ، الى صـــيد الطير والوحش ، لأجد مجالا لغريزة الصـــيد المركبة فى أعماق رجولتى ... وهجرت النوادى والمجتمعات، واقمت فى الريف برهة.. والملـــل يقتلنى ... حتى أنـــكرنى أصحابى واقاربى وانكروا أمرى ...

واخيرا لم تســـتطع عمتى ــ التى ربتنى بعد وفاة والدى وانا صـــغير ــ أن تسكت ، تحدثت الى وبحـــكمة التجربة والسن قالت لى :

ــ هذه يا مصطفى أعراض الزواج !

وفزعت ... فانا لم احـرص على شىء حرصى على حريتى ، وكيف يمكن لمثلى أن يكون زوجا ، مخلصا ومرتبطا بامراة واحدة ، مهما كان جمـــالها وسحرها ؟ .

وابتسمت عمتى ابتسامة من تدرى من امر النفس البشرية ما لا ادرى .. وسكتت وتركتنى لنفسى .

والعجيب ان سكوتها حرك ذهنى ، فصارت فـكرة الزواج تلح على . . لمـاذا لا استقر ؟ لمـاذا لا يكون هدوء الزواج دواء للسأم ؟ لمـاذا لا يـكون فراغ حياتى من الارتباط بانســان هو سر ازمتى ؟

ولكن كيف اثق بامراة ؟ كيف اثق بحواء واحدة وانا الذى عرفت ما لم يعرفه رجل عن المراة ؟ عرفت غـدرها واساليبها الماكرة فى خداع الزوج والاب والاخ ، لتبدو شريفة وهى تتبـذل ، وتخلع كل عذار ، وتتجرد من آخـــر اثر للحياء بين احضان عشيق مثـــلى لا يحترمها ،ولا يبقى عليها ، ولا يعدها الا بمتعة عابرة كانها كأس أو سيجارة .. نهايتها بعد لذة لاذعة الى فراغ ، او رماد ؟

ومرة اخرى تقدمت عمتى لتمد لى يد العون من خبرتها ... وهدتنى الى فتاة ... بل الى برعم لم تتفتح اكمامه عن الوردة بعد .. فتاة بريئة، طاهرة،

نقية كقطرة الندى فى الفجر الوليد ...

ودخلت تلك الأسرة خاطبا ...

واقبلت الفتاة البريئة بكل ظهرها على فارس الاحلام الذى وقف ببابها فوق صهوة جواد ابيض ...

ولم يفتنى ـ انا الخبير بالنساء ـ ان ادرك كم هى ساذجة بريئة . ورقص قلبى فرحا ، وقلت مع الناس .

ـ المحظوظ محظوظ دائما وفى كل شىء حقا ! اجمل بنات حواء وانت اعزب ، واطهر بنات حواء واجملهن وأوفاهن وانت متزوج !

ولكن براءتها وسذاجتها كانت عندى اثمن الف مرة من جمالها الفتان .. وشبابها الفينان ... شباب بنت السابعة عشرة !

ودخلت البيت ، وزادت الاواصر ، وصرنا نخرج معا ، ونختلس القبلات ولكننى كنت ـ انا الخبير بالنساء ـ أدرك تماما انها ليست قبلات المراة العاشقة ، بل قبلات الفتاة الساذجة المفتونة بحلم العرس ، والبيت والاستقرار السعيد ، والامومة . . . وكل ما تحلم به الفتيات الصغيرات ، من غير ولع هائم بشخص محدود !

وتنبهت غريزة الصائد ، واستيقظ غرور العاشق الغازى ..

وبدات أوقظ المراة فيها لتحبنى حب المراة لرجلها المنشود ...

ولن يكون ذلك عسيرا على انا الخبير بالنساء ... !

واحسست بطعم قبلاتها يتغير ، فانتشى غرورى ، وتاقت نفسى لدليل حاسم جديد على ان مصطفى هو الذى تحبه فتاتى لا الزوج الموعود ...

وذات يوم ، ورأسها الصغير فوق كتفى قلت لها ، وطعم قبلتى لم يزل يخدر اعصابها العذراء :

ـ أنا لاأنام ليلى يا «منى» ... من شدة الحزن والأسى !

ورفعت رأسها الجميل وحملقت فى وجهى بعينيها البريئتين ! .. وقصصت عليها بصوت مدرب قصة ماض مثقل بالذنوب والعذاب، وان امراة خطرة من نساء ذلك الماضى تملك تحت يدها ما يكفل بالقائى فى غياهب السجون، وهى تتوعدنى اذا تزوجت وهجرتها أن تقضى على ... وانى لهذا لا اجد بدا من الانسحاب من حياتها !

وتعلقت «منى» بعنقى وبكت ..

وفى اليوم التالى كانت هى التى سعت الى تناشدنى الا اتركها ، فهى لا يمكن أن تعيش بدونى ... وذرفت دمعة من دموع التماسيح ، واظهرت عجزى عن اتمام ذلك الزواج ، حرصا عليها من تلويث سمعتها وسمعة أهلها .. لان مصيرى المحقق هو السجن والفضيحة ولن تتورع تلك المراة عن ذلك ... بل قد تقتلنى !

ـ انا لا أستطيع أن أعيش بدونك يا «منى» ... ولكننى سأتحمل عذابى وحرمانى من اجلك ... من أجل شرفك ...

وبكت بين ذراعى ، وخرجت ..

ولم يمض يومان حتى عادت مصفرة

مقرحة العينين من السهر ، والامتناع عن النوم ، وادمان البـــكاء ، ودفنت راسها بين يديها وهى تقول :

ـ ليس من الضرورى أن نتـــزوج يا مصطفى ... ولكننى لا أســتطيع أن اعيش بـــدونك ... انا لك ... يزواج ... او بغير زواج !

وكان هذا حسبى ، كى ينتشى الصائد .. الدون جوان فى أعماقى ، ولكى أعلم اننى تزوجت امراة تعشقنى لشخصى ، اكثر من حرصها على كل اعتبار آخر ...

وواعدتها على الفور ، كى ادبر لها اسباب الهرب ، لتقيم فى مكان مجهول، ازورها فيه خلسة ... بينما اهلها يبحثون عنها وابحث انا معهم عن عروسى المفقودة ...

ولم تفكر فيما يصيب ابويها من حزن وعار ... لم تفكر فى شىء ...

وازداد غرورى انتشاء ..

وفى الموعد المضروب ، كنت ادخل بيت ابويها واطالب بتعجيل القران ، وهمست لها اننى سويت المسالة مع تلك المراة ، واشتريت منها الوثائق التى تهددنى بها ...

وهل انا بحاجة لاحدثكم عن سعادتى الزوجية ؟ ...

انها لا يمكن ان توصف .. لا يمكن .. فليس لها نظير ...

زوجتى اطهر زوجة ... واجمل واوفى زوجة ... واحب زوجة ... انها تعبدنى ، وانا اعبدها !

ولكننى معذب ... تعس ... احترق بسعادتى احراقا ، ولا اجد لشىء طعما ... حتى ولا لحب زوجتى ! ..

اهى الغيرة ! ..

ربما ... ولكنها غير ذات موضوع ... ليس لى غرام اغار منه فى الماضى او الحاضر ..

ومع هذا فانا غيور، تكاد تقتلنى غيرة اشد من غيرة عطيل !

حظى الذى لا نظير له جعلنى اكسب جميع النساء وانا اعزب واكسب ايضا هذه العذراء النقية ... احبتنى ووهبتنى كل شىء روحا وجسدا ، من غير ذلك العقد ...

صحيح اننى رفضت ... وكفانى منها الدليل على الحب ... ولكن مع هذا ... لم تسقط كما سقطت النساء من قبلها بسبب خارج عن ارادتها .. لان الرجل الذى اغواها تعفف ، لا لأنها تمنعت !

هذه المفوى انا ... ربما فعلت هذا ... وانا اعلمه جيدا ... ولكنه ليس انا ... انا الآن زوج طيب يريد زوجته ذات حصانة على الغواية ... اما الذى اغواها ففتى ماجن لا عهد له ولا ضمير ولا خلق !

زوجتى سقطت أمام غواية ماجن.. ولا يقلل من خطورة هذه الحقيقة ان هذا الماجن كان انا ... ولا استطيع ان انفى من ذهنى هذا الخاطر المزعج الذى يسمم كيانى كله ، كلما رايتها تتفانى فى حبى ، وتذوب تحت اتفه لمساتى ـ التى اتكلفها تكلفا ... وانا ساخط معذب ، من غير ان يكون لى ادنى حق فى تبرير سخطى وعذابى ..

انا الغيور بلا غريم ..